

# منهج أبي ذر الخشني في تفسير غريب السيرة (١)

الدكتور عبدالكريم خليفة

رئيس المجمع

كانت سيرة الرسول ﷺ، فيما يروى عن نسبه وأخباره قبل البعث وبعده، تكون جزءاً مهماً مما عني المحدثون بروايته. وما لبث هذا الموضوع المهم أن استقل في مؤلفات خاصة... وتوالى المصنفون في هذه السيرة العطرة في سلاسل متوالية من الطبقات حتى نجد أنفسنا أمام محمد بن إسحاق بن يسار المتوفى سنة (١٥٠هـ)، عمدة من أتى بعده في أخبار رسول الله ﷺ ومغازيه.

وقد روى أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري (المتوفى سنة ٢١٨هـ) سيرة ابن إسحاق عن زياد بن عبد الله البكائي (المتوفى سنة ١٨٢هـ)، وأصبحت تعرف باسم «سيرة ابن هشام».

وفي القرن السادس الهجري تناول الإمام أبو القاسم عبدالرحمن السهيلي المالكي الأندلسي، المتوفى سنة ٥٨١هـ، سيرة الرسول ﷺ، فتعقب ابن إسحاق وابن هشام، فيما أخبرا بالتحريير والضبط، وبالشرح والاستدراك عليهما، فوضع كتابه الموسوم بـ«الروض الأنف»، ونهج في تصنيفه هذا منهجاً موسوعياً، فجاء كتابه هذا كتاباً آخر في السيرة.

وفي هذا القرن نجد الإمام أبا ذر الخشني أحد أئمة العربية المشهورين في الأندلس، (المتوفى بمدينة فاس سنة ٦٠٤هـ) وهو من معاصري السهيلي، يتناول كتاب «سيرة ابن هشام» فيشرح غريبه، وينهج في تصنيفه هذا منهجاً لغوياً يختلف عن منهج السهيلي.

والخشني صاحب شرح غريب سيرة ابن هشام هو مصعب بن محمد بن مسعود ابن عبدالله بن مسعود الخشني، من أهل جيان، يكنى أبا ذر، ويعرف بابن أبي رُكب.

(١) بحث قدم إلى مؤتمر مجمع اللغة العربية بالقاهرة، بتاريخ ١٤/٤/١٩٩٢م.

والأرجح أن نسبة الخشني تعود إلى قبيلة خشين القضاعية<sup>(١)</sup>.

وقد وصفته المصادر بأنه كان أحد الأئمة المتقدمين ضبطاً وتقيداً، وأحد المعتمدين عليهم في علم اللغة والآداب، إماماً في العربية، عالماً بكتاب سيبويه. وكان نقاداً للشعر عالماً به، مطلق العنان في معرفة أخبار العرب وأيامها وأشعارها ولغاتها...

ومن أهم مصنفات أبي ذر الخشني كتابه الموسوم: «الإملاء المختصر في شرح غريب السير» وهو في حقيقة الأمر شرح غريب السيرة التي صنفها ابن هشام ولا شك أن هذا هو الدافع الذي جعل السيوطي، وهو متأخر، أن يذكره في كتابه «البيغة» بقوله: «من تصانيفه (أي الخشني) الإملاء على سيرة ابن هشام»<sup>(٢)</sup>.

وضع الخشني مصنفه هذا في عشرين جزءاً، وذكر أنه روي له كتاب سيرة رسول الله ﷺ عن عبد الملك بن هشام عن زياد بن عبد الله عن محمد بن إسحاق. ومن الواضح أن هذا المصنف كان ثمرة مجلسه للإقراء والتدريس. فقد جاء في مقدمة الكتاب ما يوضح الغاية من وضع هذا الكتاب، ويحدد السمات الأساسية لهذا المنهج اللغوي الذي نحا به نحواً يخالف منهج معاصره السهيلي في كتابه «الروض الأنف». يقول أبو ذر الخشني في مقدمته «وبعد، فهذا إملاء أمليته من حفطي بلفظي على كتاب سيرة رسول الله ﷺ، التي تقدم محمد بن إسحاق إلى جمعها وتلخيصها، وعني عبد الملك بن هشام بعده بتهذيبها وتلخيصها، وأَنَّ سُمع هذا الكتاب مني وقيدت رواياته بطرقها عني، قصدت فيه شرح ما استبهم من غريبه ومعانيه، وإيضاح ما التبس تفسيره على حامله وراويه مع اختصار لا يُخل وإيجاز يتمُّ به البيان ويستقل، لم يُقصد فيه قصد التأليف فتمد أطنابه، ولا يُنحى به نحو التصنيف فتمهد فصوله وأبوابه، وإنما هي عجالة خاطر وغنية الناظر، ثم عُرض علي هذا الإملاء بعد كماله فتصفحته، ورُغب في حمله عني، فبعد لأي ما أذنت في ذلك وأبحت، والله سبحانه ينفعنا بما قصدنا، ويجزل ثوابنا على ما ابتغيناه وتوخينا.. إلخ»<sup>(٣)</sup>.

(١) في ترجمة حياة أبي ذر الخشني، انظر: مقدمة كتابنا «الإملاء المختصر في شرح غريب السير»

ص ١١-٣٦.

(٢) البيغة ج ٢ ص ٢٨٨.

(٣) الإملاء المختصر، ج ١ ص ٧٢.

ففي هذه المقدمة المقتضبة، حدد الخشني طبيعة وضع هذا العمل اللغوي، وبين أهدافه وأشار إلى معالم المنهج الذي اتبعه. فهو إملاء على كتاب «سيرة ابن هشام»، سُمع منه وقيدت رواياته بطرقها عنه إبان تصدره للتدريس. فمن المعروف أنه كان يقرئ العربية في أهم مراكز الإشعاع الثقافي والعلمي في ذلك الوقت في الأندلس والمغرب. فتحدثنا الروايات أنه كان يقرئ العربية بمسجد ابن الرمك بأشبيلية، وكذلك بجيَّان وغيرها من المدن التي أحبها، إلى أن استوطن بأخرة مدينة فاس وأقام بها يقرئ العربية<sup>(١)</sup>.

وتسترعي انتباهنا في هذه المقدمة قضايا عدة تستحق الوقوف عندها والتأمل فيها. فهو إملاء من حفظه بلفظه أملاه على طلبته أو أن سُمع هذا الكتاب منه، وقيدت رواياته بطرقها عنه، وإن كان مع الأسف لم يحدد لنا زمان سماعه منه ولا المكان الذي أملاه فيه.

وأوضح كذلك الهدف الذي توخاه من وضع هذا الكتاب إذ يقول: «قصدت فيه شرح ما استبهم من غريبه ومعانيه»، فلا بد من أن نحدّد مفهوم «الغريب» عن أبي ذر، وأن نبين منهجه في «شرح ما استبهم من المعاني» ففي ذلك يتجاوز شرح الغريب من الألفاظ إلى الحديث عن «معنى المعنى»، فيما استبهم من المعاني.... و«فيما التبس تفسيره على حامله وراويه».. وأن أسلوبه في ذلك كله هو الاختصار الذي لا يُخل والإيجاز الذي يتم به البيان ويستقل.... وإن قوله في وصف منهجه «لم يُقصد فيه قصد التأليف فتمد أطنابه، ولا ينحى به نحو التصنيف فتمهد فصوله وأبوابه»، ليَضَع على عاتق الدارس البحث عن السمات المعجمية التي تميّز بها منهج الخشني في شرحه لما استبهم من غريب الكتاب ومعانيه.. وإن كان أجمل القصد من ذلك كله عندما وصف مبادرته هذه بقوله: «وإنما هي عجالة خاطر وغنية الناظر».

لقد نهج أبو ذر الخشني في كتابه هذا منهجاً لغوياً خاصاً تظهر فيه كثير من سمات المنهج المعجمي، وهو في الوقت ذاته يبتعد من حيث الغاية والأسلوب عن كونه كتاباً في السيرة.

---

(١) انظر: تكملة الصلة، السفر الأول، ص ٢٨٦.

كان الخشني كما وصفه ابن سعيد من عظماء نحاة الأندلس، وقد تصدى لتدريس كتاب سيبويه. ومن مصنفاته الشهيرة: مصنف كبير في شرح سيبويه، وكتاب «شرح الإيضاح» وكتاب «شرح الجمل»<sup>(١)</sup> وكان على حد تعبير ابن الأبار «رئيساً في صناعة العربية، عالماً بها، قائماً عليها، درسها حياته كلها»<sup>(٢)</sup>.

وإن لغويًا هذا شأنه، لا بد أن يكون على صلة وثيقة بالمناهج المعجمية العربية التي تطورت تطوراً واسعاً منذ الخليل بن أحمد في القرن الثاني الهجري حتى وفاة أبي ذر الخشني في أوائل القرن السابع الهجري، ومن أقصى المشرق في فاراب وخراسان إلى الأندلس، مروراً بالعراق والشام ومصر. ومن أشهر هذه المعجمات: كتاب العين للخليل بن أحمد (المتوفى سنة ١٧٠هـ) والتهذيب للأزهري (المتوفى سنة ٢٧٠هـ) والصحاح للجوهري (المتوفى سنة ٢٩٢هـ) والمحكم لابن سيده (المتوفى سنة ٤٥١هـ) والأمامي لابن بري (المتوفى سنة ٥٨٢هـ) والنهاية في غريب الحديث، لابن الأثير (المتوفى سنة ٦٠٦هـ). وإذا تذكرنا أن الخشني توفي سنة ٦٠٤هـ، بدا لنا واضحاً، مكانة هذه المعجمات في تكوين المنهج المعجمي بصورة عامة، ومنهج أبي ذر الخشني في تفسير غريب السيرة. وربما كان من الأهمية بمكان طرح التساؤل حول مدى العلاقة بين «النهاية في غريب الحديث» لابن الأثير بصورة خاصة وشرح غريب السيرة للخشني. وإذا استثنينا كتاب العين، نجد أن المعجمات الخمسة الأخرى هي المصادر التي اعتمدها ابن منظور في القرن الثامن الهجري، في وضع معجمه المشهور «لسان العرب». ولا شك أن اختيار ابن منظور هذه المعجمات بالذات له دلالات منهجية ولغوية وثقافية واجتماعية لا يتسع المقام لبحثها. ونحن إذا نظرنا إلى جميع هذه المعاجم والمصنفات الأخرى التي عنيت بجمع ألفاظ القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف وكذلك الألفاظ الاصطلاحية وشرحها وتفسيرها، إنما تنحو جميعها منحى معيناً في دراسة معاني الألفاظ.....

وربما كانت أبرز ظاهرة تميز المنهج اللغوي الذي سلكه أبو ذر الخشني في شرحه غريب السيرة، حرصه على تفسير الألفاظ بحسب السياق ومن خلال النصوص. فهو

(١) انظر: سير أعلام النبلاء، ج ٢١ ص ٤٧٧.

(٢) انظر: تكملة الصلة، السفر الأول، ص ٢٨٥-٢٨٦.

يبحث عن استيعاب المعنى من خلال الدلالة التي تحملها اللفظة في سياق الكلام، سواء أكان ذلك من خلال سياق المقال أم من خلال سياق المقام، فقد يكون للفظ الواحد معان متعددة تتناوب في الظهور بحسب سياق الكلام وإيحاءاته وما يضيفه من ظلال على المعنى.

فالحشني يورد العبارة التي تشتمل على اللفظة التي يريد شرحها، وغالباً ما يبدأها بكلمة «وقوله» وهذا منهج عام يطرد في هذا الكتاب الجليل، ونمثل على ذلك بما يلي: قوله: «مِنْ ظُلْمَةٍ يَعْنِي مِنْ جِهَةِ الْبَحْرِ» (ج ١ ص ٧٧).

فالحشني يرى أن معنى «ظُلْمَةٍ» في هذا المقام هو «أنه من جهة البحر» وهو بحسب رأيه ما عناه القائل، ولم يعرض الحشني المعاني المعجمية لهذه اللفظة. وكذلك قوله «إِنَّهَا حَرْبٌ رِبَاعِيَّةٌ. أَرَادَ إِذَا حَرْبٌ فَتِيَّةٌ. فَاسْتَعَارَ لَهَا سِنَّ الرِّبَاعِيَّةِ» (ج ١ ص ٧٩).

واستدل الحشني على هذا المعنى من السياق، فقال: «كما قال:

الْحَرْبُ أَوَّلُ مَا تَكُونُ فَتِيَّةً      تَسْعَى مَسِيرَتَهَا لِكُلِّ جَهْلٍ سَوَّلِ».

وقوله: «وأبدانها جمع بَدَنٍ وهي الدَّرْعُ هنا».

فكلمة «بدن» تدل على معانٍ مختلفة، ولكن الحشني يرى أنها في هذا السياق تعني.. الدَّرْعُ» وقد نص على ذلك بقوله: «هنا».

وقوله: «ذات الرؤوس السبعة، يعني بالرؤوس هنا القرون التي على رأسها». (ج ١ ص ٨٢).

فكلمة «الرؤوس» تدل على معانٍ مختلفة، ولكن الحشني يرى أنها في هذا السياق تعني «القرون»، وقد درج على استعمال كلمة «هنا» لتدل على معنى خاص في هذا السياق.

وقوله: «أسطوان جمع أسطوانة وهي السارية، وأراد بها هنا موضع الراهب المرتفع (ج ١ ص ٨٥).

أورد الحشني لفظة «أسطوان» في صيغة الجمع وذكر مفردها، ووضع معناها اللغوي، ثم وضع معناها المقصود في سياق الكلام فقال: «وأراد بها هنا «موضع

الراهب المرتفع».

وقوله: «الوتر هنا طلب الثار» (ج ١ ص ٨٨).

فالخشني يرى أن «الوتر» في هذا المقام يعني طلب الثار. وقوله «والحاصب هنا الحجارة» (ج ١ ص ٩٤).

ويستعمل الخشني للإشارة إلى ما يقتضيه سياق الكلام من معنى بالفاظ مثل: «هنا» و«ها هنا» و«يعني» و«يعني به» و«يريد» والأمثلة على ذلك كثيرة ومطرودة في جميع أجزاء الكتاب... ومنها:

«السافي هنا الذي غطاه التراب. يقال: سَفَتَ الرِّيحُ الترابَ (ج ١ ص ٩٥) أورد الخشني المعنى السياقي، ثم ذكر المعنى اللغوي من خلال المثال الذي أورده، إذ إن اسم الفاعل من الفعل الثلاثي «سفى» هو «سافي»، ولكن المعنى السياقي جاء على غير ذلك.

وقد يستعمل الخشني في تفسيره المعنى السياقي كلمة «يعني» كما ذكرنا، ومثال ذلك: «وبنو الأحرار يعني الفرس» (ج ١ ص ٩٩).

«وَشُدْفَتُ عِظَامِ الْأَشْخَاصِ يَعْنِي بِهِ الْقَسِي» (ج ١ ص ٩٩).

فقد أورد المعنى اللغوي ثم أورد المعنى السياقي الذي يقتضيه المقام.

وقوله: «وَالزُّمَّخَرُ الْقَصَبُ الْيَابِسُ يَعْنِي قَصَبَ النَّشَابِ» (ج ١ ص ٩٩).

وقوله: «الْإِسْبَالُ إِرْخَاءُ الثَّوْبِ، وَهَذَا يَرِيدُ بِهِ الْخِيَلَاءُ وَالْإِعْجَابُ» (ج ١ ص ٩٩).

فقد شرح الخشني معنى «الإسبال» في اللغة، وشرح معناها في سياق الكلام، وهذا ما عبّر عنه في مقدمته في حديثه عن قصده من وضع هذا الشرح بما أسماه «غنية الناظر». وقد يستعمل الخشني لفظة «يريد» في الإشارة إلى المعنى السياقي أو المعنى الذي يقتضيه المقام ومن ذلك:

قوله: «وَأَوْلَادُ مُلْكٍ يَرِيدُ الَّذِينَ يَدْبُرُونَ أَمْرَ النَّاسِ وَيُصَلِّحُونَهُ» والأمثلة على ذلك كثيرة ومطرودة ومنها:

قوله: «وَتَوَالِبُهَا جَمْعُ تَوَلَّبٍ، وَالتَّوَلَّبُ وَلِدُ الْحِمَارِ، فَجَعَلَهُ هُنَا لِلْبَغَالِ». (ج ١ ص ١٠٠).

وقوله: «يَرِيئُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَيُؤَيِّرِي». يريد أن الله تعالى ينفع، وهذا الصنم لا ينفع، (ج ١ ص ١٠٤).

وقوله: «فَلَا وَرَبِّ الْأَمْنَاتِ الْقَطَّنُ»، يعني حمام مكة، والقَطَّنُ المقيمات. يقال قَطَّنَ بالمكان إذا أقام فيه.

فقد أورد الخشني المعنى وفق سياق الكلام، ثم أورد المعنى اللغوي، وهكذا يستمر الخشني في هذا المنهج اللغوي في تفسيره غريب السيرة، ألفاظاً ومعاني.

ولا شك أن الخشني لم يكن مبتدعاً لهذا المنهج اللغوي، ولكنه نحا فيه منحى معجماً مد ظلاله بصورة رئيسية على القصائد والمقطوعات التي وردت في السيرة.. وأخذ تفسيراً الألفاظ بحسب السياق طابعاً علمياً واضحاً.

فهذا الراغب الأصفهاني، وهو من أوائل القرن الخامس الهجري، يحدثنا عن العلوم اللفظية، فيقول: «وذكرت أن أول ما يُحتاج أن يُشغل به من علوم القرآن العلوم اللفظية، ومن العلوم اللفظية تحقيق الألفاظ المفردة، فَتَحْصُلُ معاني مفردات الألفاظ القرآن، في كونه من أوائل المُعاون لمن يريد أن يدرك معانيه... وليس ذلك نافعاً في علم القرآن فقط، بل هو نافع في كل علم من علوم الشرع. فالألفاظ القرآن هي لبُّ كلام العرب وزبدته وواسطته وكرامته..<sup>(١)</sup>»

وقد أشار الزركشي في كتابه البرهان إلى عناية الرَّاغِبِ في فهم مفردات الألفاظ ومدلولاتها واستعمالها بحسب السياق، وذلك في أثناء حديثه عن القِسْمِ من القرآن الكريم الذي لم يرد في تفسيره النقلُ عمَّن يُعتبر تفسيره. يقول الزركشي: «... الثاني ما لم يرد فيه نقل عن المفسرين، وهو قليل، وطريق التوصل إلى فهمه، النظر إلى مفردات الألفاظ من لغة العرب ومدلولاتها واستعمالها بحسب السياق، وهذا يعتني به الراغب كثيراً في كتب «المفردات». فيذكر قيدا زائداً على أهل اللغة في تفسير مدلول اللفظ لأنه اقتتنصه من السياق<sup>(٢)</sup>. ويستدل الطبرسي، وهو من أكابر علماء الإمامية في القرن السادس الهجري (المتوفى سنة ٥٤٨هـ) على أن معنى «الدين» في الآية الكريمة هو

(١) الراغب الأصفهاني، ص ٢.

(٢) الزركشي، ج ٢ ص ١٧٢.

«الجزاء». وذلك من خلال قوله تعالى ﴿الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ  
إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾<sup>(١)</sup>.

وقوله تعالى: «لَا تَعْتَدِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْرُونَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ»<sup>(٢)</sup>.

يقول الطبرسي: «الدين» معناه في الآية الجزاء. قال الشاعر: (واعلم بانك ما تدين  
تدان)، وهو قول سعيد بن جبير وقتادة، وقيل الدين الحساب، وهو المروي عن أبي  
جعفر محمد بن علي الباقر عليهما السلام وابن عباس، والدين الطاعة.

قال عمرو بن كلثوم:

وأيام لنا غر طوالٍ      عصينا الملك فيها أن ندينا

والدين العادة، قال الشاعر:

تقول إذا درأت لها وضيئي      اهذا دينه أبداً وديني

والدين القهر والاستعلاء. قال الأعشى:

هو دان الرباب إذ كرهوا الدَّ      ين دزاکاً بغزوة واحتيال  
تم دانت بغد الرباب وكانت      كغذاب عقوبة الاقوال

ويدل على أن المراد الجزاء والحساب، قوله تعالى ﴿الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا  
كَسَبَتْ﴾ وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُجْرُونَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾<sup>(٣)</sup>.

وفي تفسير «النعمة» من سورة الفاتحة يقول الطبرسي: «وأصل النعمة المبالغة  
والزيادة، يقال دقت الدواء فأنعمت دقته أي بالغت في دقه، وهذه النعمة وإن لم تكن  
مذكورة في اللفظ فالكلام يدل عليها... إلخ»<sup>(٤)</sup>.

(١) سورة غافر، الآية رقم (١٧).

(٢) سورة التحريم، الآية رقم (٧).

(٣) الطبرسي، ج ١ ص ٣٠.

(٤) المصدر نفسه.

فقد استدل على معنى هذه اللفظة بسياق الكلام الذي يدل على المعنى المراد. واستمر المنهج اللغوي، وفق سياق الكلام يُمَدُّ ظلالة على البحوث اللغوية والفقهية. ويعرض الفقيه الفيلسوف ابن رشد (٥٢٠-٥٩٥هـ) إلى هذه الظاهرة اللغوية، ويطلق عليها «دليل الخطاب». ففي حديثه عن أصناف الألفاظ التي تتلقى منها الأحكام من السمع، يقول ابن رشد: «وأما الطريق الرابع، فهو أن يُفهم من إيجاب الحكم لشيء ما، نفْي ذلك الحكم عمَّا عدا ذلك الشيء، أو مِن نَفْي الحكم عن شيء ما، إيجابه لما عدا ذلك الشيء الذي نُفِي عنه وهو الذي يُعرف «بـدليل الخطاب». وهو أصل مختلف فيه، مثل قوله عليه الصلاة والسلام: «في سائمة الغنم الزكاة»، فإن قوماً فهموا منه أن لا زكاة في غير السائمة. وأما القياس الشرعي فهو إلحاق الحكم الواجب لشيء ما بالشرع، بالشيء المسكوت عنه، لشبَّهه بالشيء الذي أوجب الشرع له ذلك الحكم، أو لعلّة جامعة بينهما»<sup>(١)</sup>.

وإن ما أسماه ابن رشد «دليل الخطاب»، إنما هو فهم المعنى المراد من خلال دليل ينبّه عليه سياق الكلام. وإذا كان ابن رشد استطاع أن يرسم صورة متكاملة لنظريته حول المعاني المتداولة المتأدية من أصناف الألفاظ<sup>(٢)</sup>، فإن معاصره من أبناء بلده، الإمام الخشني قد جعلها محور منهجه في تفسيره غريب السيرة.

واستمر هذا المنهج اللغوي الذي أجمل نظريته ابن رشد وأصل أركانه الخشني في مجالسه العلمية والتعليمية، يتطور في دراسة الدلالات اللفظية، بل يستعمل اصطلاحات لغوية تشير بصورة واضحة إلى ما أضيف من جديد في علم المعجمات.

وفي القرن الثامن الهجري، نجد استعمال مصطلحات «سياق الكلام» شائعة، ولا سيما في مجال علوم القرآن والحديث. يحدد الزركشي وهو من أبناء القرن الثامن الهجري (المتوفى سنة ٧٩٤هـ)، معالم القانون الذي يجب أن يعوّل عليه في تفسير القرآن الكريم فيقول: «ومعلوم أن تفسيره، يكون بعضه من قبيل بسط الألفاظ الوجيزة وكشف معانيها، وبعضه من قبيل ترجيح بعض الاحتمالات على بعض،

(١) ابن رشد، ج ١ ص ٤.

(٢) انظر: ابن رشد، ج ١ ص ٣-٥.

لبلاغته ولطف معانيه، ولهذا لا يُستغنى عن قانون عام يعوّل في تفسيره عليه، ويُرجع في تفسيره إليه، من معرفة مفردات ألفاظه ومركباتها وسياقه، وظاهره وباطنه....»<sup>(١)</sup>.

وفي حديث الزركشي عن فصاحة القرآن الكريم وبلاغته وبديع صياغته يقول: «إن كان سياق الكلام ترجيةً بسط، وإن كان تخويفاً قبض، وإن كان وعداً أبهج، وإن كان وعيداً أزعج...»

وأورد صاحب كتاب البرهان، تحت عنوان: «في ذكر الأمور التي تُعين على المعنى عند الإشكال» قوله: «ومما يعين على المعنى عند الإشكال أمور... الرابع: دلالة السياق، فإنها ترشد إلى تبيين المجمال والقطع بعدم احتمال غير المراد، وتخصيص العام... وتنوع الدلالة، وهو من أعظم القرائن الدالة على مراد المتكلم. فمن أهمله غلط في نظيره، وغالط في مناظرته. وانظر إلى قوله تعالى: ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ»<sup>(٢)</sup>، كيف تجد سياقه يدل على أنه الذليل الحقير»<sup>(٣)</sup>.

ويشيع الحديث عن «السياق» و«دلالة السياق» و«تنوع الدلالة» في مواضع كثيرة من كتابه «البرهان في علوم القرآن»... ويفصّل القول في التفسير بحسب أفراد الألفاظ وتراكيبها... ومما له دلالة كبيرة في بناء معالم هذه النظرية اللغوية، أن الزركشي قد تحدث في كتابه المشار إليه عن «معنى المعنى»، إلى جانب المصطلحات اللغوية الأخرى. ففي حديثه عن التفسير بحسب تراكيب الألفاظ، يقول: «وأما بحسب التركيب، فمن وجوه أربعة:

**الأول:** باعتبار كيفية التراكيب بحسب الإعراب ومقابله، من حيث إنها مؤدية أصل المعنى، وهو ما دلّ عليه المركب بحسب الوضع، وذلك متعلق بعلم النحو.

**الثاني:** باعتبار كيفية التركيب من جهة «إفسادته معنى المعنى»، أعني لازم أصل المعنى الذي يختلف باختلاف مقتضى الحال في تراكيب البلغاء، وهو الذي يتكفل

---

(١) الزركشي، ج ١ ص ١٥.

(٢) سورة الدخان الآية (٤٩).

(٣) الزركشي، ج ٢ ص ١٩٩-٢٠٠.

بإبراز محاسنه علم المعاني<sup>(١)</sup>.

وكذلك نجده يتحدث في هذا الباب عن «طرق تأدية المقصود بحسب وضوح الدلالة وحقائقتها ومراتبها...» ولا شك أن الحديث عن الدلالة يعني الحديث عن العلاقة بين «الدال» و«المدلول» وقد عني الخشني في منهجه اللغوي الذي اتخذه في تفسير غريب السيرة، إلى جانب الدلالة السياقية، بالدلالة النحوية والدلالة الاشتقاقية وكذلك الفروق الدلالية للمشارك اللفظي، واللفظة الواحدة التي إذا تغيرت إحدى حركات بُنيتهَا، تغيّرت دِلَالَتُهَا..

ويبدو أن الدراسات حول المعنى المراد من خلال سياق الكلام، قد اتسع نطاقها في هذا القرن، وهي في كليتها تدور حول علاقة المعجمية بعلم الحديث وأصول الفقه. وقد أجمل الشاطبي (المتوفى سنة ٧٩٠هـ) وهو من معاصري الزركشي، الحديث عن هذا المنهج اللغوي في فهم المعاني، فقال في كتابه (الموافقات في أصول الشريعة): «... أن يكون الاعتناء بالمعاني المبتوثة في الخطاب هو المقصود الأعظم، بناءً على أن العرب، إنما كانت عنايتها بالمعاني، وإنما أصلحت الألفاظ من أجلها. وهذا الأصل معلوم عند أهل العربية. فاللفظ هو وسيلة إلى تحصيل المعنى المراد، والمعنى هو المقصود، ولا أيضاً كل المعاني. فإن المعنى الإفرادي قد لا يُعْبَأُ به، إذا كان المعنى التركيبي مفهوماً دونه»<sup>(٢)</sup>.

ويوضح الشاطبي هذه العلاقة السياقية بين الدال والمدلول فيؤكد البحث عن المعنى المقصود الذي يقوم عليه جوهر الخطاب فيقول: «فاللزام الاعتناء بفهم معنى الخطاب، لأنه المقصود والمراد، وعليه ينبني الخطاب ابتداءً. وكثيراً ما يُغفل هذا النظر بالنسبة إلى الكتاب والسنة، فنُلْتَمَسُ غرائب ومعانيه على غير الوجه الذي ينبغي، فتَسْتَبْهِمُ على المُلْتَمَسِ، وتَسْتَعْجِمُ على من لم يفهم مقاصد العرب»<sup>(٣)</sup>

لقد بينا فيما سبق كيف أن الخشني يحرص في منهجه المعجمي على إبراد معنى

(١) الزركشي، ج ٢ ص ١٧٣-١٧٤.

(٢) الشاطبي، ج ٢ ص ٨٧.

(٣) الشاطبي، ج ٢ ص ٨٨.

اللفظة حسب سياق الكلام، سواء أكان ذلك وفق مقتضى المقال أم وفق مقتضى المقام.

وفي مجال «الدلالة النحوية» نورد بعض الأمثلة التالية:

يقول الخشني: «وقول ابن هشام: الأباييل الجماعات، ولم تتكلم لها العرب بواحد. قال النحويون: واحدها في القياس: إبييل وإبول»<sup>(١)</sup>.

وقوله: «ومطموم من قولهم طمّ الماء إذا علا وارتفع، وقول الراجز: فَصَيَّرُوا مِثْلَ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ».

قال: ولهذا البيت تفسير في النحو، تفسيره أن الكاف زائدة لكونها قد تكون حرفاً، و«مثل» لا تكون إلا اسماً، فزيادة الحرف أولى من زيادة الاسم، والمراد لزيادتها التأكيد<sup>(٢)</sup>.

وقوله: «لم يؤوبوا أرضهم» أي لم يرجعوا إلى أرضهم.

يقال: أب إلى كذا أي رجع إليه. وكان وجه الكلام أن يقول: إلى أرضهم. فحذف حرف الجر وأوصل الفعل<sup>(٣)</sup>.

وقد أولى الخشني الدلالة الاشتقاقية اهتماماً، فقد يستعرض وجوه الاشتقاق ثم يعطي المشهور منها والشائع. مثال ذلك قوله:

«وما بعد ذلك - أي بعد معدّ بن عدنان - فهي أسماء أعجمية، منها ما يوافق العربي في الاشتقاق والتصريف، ومنها ما يخالفه».... ولؤي، تصغير لأي وهو الثور الوحشي، وقد يكون تصغير لأي وهو البطء، والمشهور فيه الهمز...<sup>(٤)</sup>.

وقد يستعرض وجوه الاختلاف في اللفظ، ويقف عند الدلالة الصرفية، مثال ذلك قوله: «وإلياس مختلف فيه. فمنهم من يقول فيه: «أليأس» موافق للذي هو خلاف

(١) الخشني، ج ١ ص ٩٠.

(٢) انظر: الخشني، ج ١ ص ٩١.

(٣) الخشني، ج ١ ص ٩٣.

(٤) الخشني، ج ١ ص ٧٢.

الرُّجَاء. وهو مصدر يُّئَسُّ... ويستدل على ذلك بقول رؤية بن العجاج:

أُمَّهْتِي خُنْدَفٌ وَالْيَأْسُ أَبِي.

ويقول ابن هرمة:

أُصِيبُ بِدَاءِ يَأْسٍ فَهُوَ مُودِي. أَي هَالِك.

وبعضهم يقول فيه: إِيَّاسٌ بكسر الهمزة<sup>(١)</sup>.

وقوله: «إِخَافٌ: مِنْهُمْ مَنْ يَكْسِرُ هَمْزَتَهُ وَيَقْطَعُهَا، كَأَنَّهُ سَمِيَ بِمَصْدَرِ الْخَفِّ فِي الْمَسْأَلَةِ، إِذَا بَالِغٌ فِيهَا، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: «لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا»<sup>(٢)</sup>، وَمِنْهُمْ مَنْ يَجْعَلُ الْأَلْفَ وَاللَّامَ فِيهِ لِلتَّعْرِيفِ، بِمَنْزِلَةِ اسْمِ الْفَاعِلِ مِنْ: حَفِي يَحْفَى<sup>(٣)</sup>.

وقوله: «الْقُلَيْسُ هُوَ اسْمُ الْكَنِيسَةِ الَّتِي بَنَى، وَهُوَ مُشْتَقٌّ مِنْ قَلَسَ الشَّيْءُ، إِذَا ارْتَفَعَ»<sup>(٤)</sup>.

وقوله: «الْأَكَارِيشُ الْجَمَاعَاتُ مِنَ النَّاسِ، وَهُوَ جَمْعُ أَكْرَاشٍ، وَأَكْرَاشٌ جَمْعُ كِرْشٍ، وَالْكِرْشُ الْجَمَاعَةُ مِنَ النَّاسِ، فَهُوَ عَلَى هَذَا جَمْعُ الْجَمْعِ»<sup>(٥)</sup>.

وقوله: كَوْرِدُ الْقَطَا، الْوَرْدُ هَا هُنَا الْوَارِدَةُ لِلْمَاءِ، سَمِيَتْ بِاسْمِ الْمَصْدَرِ<sup>(٦)</sup>.

ويقف الخشني أيضاً عند اللفظة الواحدة التي إذا تغيرت إحدى حركات بنيتها تغيرت دلالتها، مثال ذلك قوله:

«الْجِلَالُ بِكسرِ الْحَاءِ، جَمْعُ جِلَّةٍ، وَهِيَ جَمَاعَةُ الْبَيْوتِ، وَالْحَلَالُ بِفَتْحِ الْحَاءِ خِلَافَ الْحَرَامِ»<sup>(٧)</sup>.

---

(١) الخشني، ج ١ ص ٧٣-٧٤.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٧٣.

(٣) الخشني، ج ١ ص ٧٥.

(٤) الخشني، ج ١ ص ٨٧.

(٥) الخشني، ج ١ ص ١٠٧.

(٦) الخشني، ج ١ ص ١٢١.

(٧) الخشني، ج ١ ص ٨٨.

وقوله: «الأدماء من الظباء السُّمَر الظهر البيضاء البطن. والأُدْمَة في الإبل البياض الخالص. والأُدْمَة في الأدميين أن يميل اللون إلى السُّمرة قليلاً» (١).

وقوله: «ومَنْ روى عِقْدُ ذاتُ نطاف، بكسر العين، فالنُّطاف جمع نُطْفَةٍ، وهي القُرْط الذي يُعلّق من الأذن. ومن رواه عَقْدُ، بفتح العين، فالنُّطاف جمع نُطْفَة من الماء، وهو القليل الصافي منه» (٢).

وقوله: «العَدْقُ، بفتح العين النخلة، وبكسر العين الكِبَاسَة، وهو عُنُقود النخلة» (٣).

ويقف الخشني عند اللفظة الواحدة، التي إذا تغير أحد حروف بنيتها في وجه من وجوه الروايات تغيرت دلالتها، مثال ذلك قوله:

«يقال: أَخْفَرْتُ الرَّجُلَ، إذا نقضت عَهْدَهُ، وَخَفَرْتَهُ، إذا أجزته» (٤).

وقوله: «كالإبل الطَّرَاب، يروى بالطاء معجمة، وبالطاء غير معجمة. فمن رواه بالطاء معجمة فهو جمعٌ ظَرِب وهو الجُبيل الصغير، شبه الإبل بها، ومن رواه بالطاء المهملة فهي الإبل التي حنت إلى مواطنها واشتأقت. يقال: طَرَبَتِ الإبل إذا حنَّت» (٥).

وقوله: «والفَجْرُ بالجيم العطاء، وبالحاء المعجمة الفَخْرُ» (٦).

وقوله: «وَأَبْلَجُ بالجيم مشهور، وبالحاء متكبر. والزمن الجرود بالجيم، زمن القحط، لأنه يجرد الأرض من النبات، ومن رواه بالحاء المهملة، فمعناه الذي يمتنع قَطْرُهُ، لأن حَرَدَ قد تكون بمعنى قَطَعَ وَمَنَعَ. ومنه قولهم: حاردت الناقة إذا منعت درها أي لبنها» (٧).

(١) الخشني، ج ١ ص ٩١.

(٢) الخشني، ج ١ ص ١٤٢.

(٣) الخشني، ج ١ ص ١٥٢.

(٤) الخشني، ج ١ ص ٨٩.

(٥) الخشني، ج ١ ص ١٢٢.

(٦) الخشني، ج ١ ص ١٢٨.

(٧) الخشني، ج ١ ص ١٣٦.

ويُعنى الخشنى في تفسيره الغريب، بإيراد الروايات المختلفة، وقد يوثق هذه الروايات فيذكر المصدر، وكثيراً ما يسكت عن المصدر، ويصوب ما يراه، معتمداً رأيه. وهو الحجة في اللغة، كما تجمع المصادر التي تحدثت عنه، مثال ذلك قوله:

«وقوله» في ولد إسماعيل: وَطَيْمَاء، كذا وقع هنا بالطاء المهملة مكسورة ومفتوحة. وقيده الدار قطني: وَظَمِيَاء بِالظاء المعجمة ممدوداً وتقديم الميم<sup>(١)</sup>.

فقد أورد الخشنى الروايتين وضبطهما، وأورد مصدره في رواية أخرى. وقوله «مُضَاض... ويقال: مُضَاض بكسر الميم أيضاً»<sup>(٢)</sup>

وقوله «أَسْلَمٌ» هنا بضم اللام وفتحها، وأسلم بضم اللام هو الصواب<sup>(٣)</sup>.

وقوله: «وَجُرُوب حِجَارَةٌ سَوْدٌ كَذَا قَالَ الْوَقَشِيُّ، وَهِيَ رِوَايَةٌ. وَمَنْ رَوَاهُ حُرُوثٌ فَهُوَ جَمْعُ حَرْتٍ»<sup>(٤)</sup>.

وقوله بعد أن عرض الروايات المختلفة لكلمة «اللُّنُق» و«اللُّبُق» وما يترتب على ذلك من اختلاف في المعنى مبدئياً رأيه على عادته فيقول: وَاللُّنُقُ بِالنَّاءِ الْمَثْنَةُ هُوَ الصَّوَابُ هُنَا<sup>(٥)</sup>.

وقوله: «وَفَقَمٌ عَظْمٌ، وَيُرْوَى فَقَمٌ بِكسر القاف، والصواب فتحها»<sup>(٦)</sup>.

وقوله: «وَوَقَعَ فِي الرِّوَايَةِ فُطِعَ بِضَمِّ الْفَاءِ وَفَتْحِهَا. قَالَ الشَّيْخُ الْفَقِيه أَبُو ذَرِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وَالصَّوَابُ فُطِعَ بِفَتْحِهَا عَلَى وَزْنِ عَلِمٍ»<sup>(٧)</sup>.

---

(١) الخشنى، ج ١ ص ٧٤.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) الخشنى، ج ١ ص ٧٥.

(٤) الخشنى، ج ١ ص ٨٥.

(٥) المصدر نفسه.

(٦) الخشنى، ج ١ ص ٩٨.

(٧) الخشنى، ج ١ ص ٧٦-٧٧.

وقوله: «ومشاجبها جمع مِشَجِبٍ، وهو عودٌ تعلق عليه الثياب، ورواية الخشني مَسَاجِبُهَا. وقال: هي القلائد في العنق من قَرَنْقُلٍ أو غيره<sup>(١)</sup>».

وقوله «والمِرْبَاعُ الذي رعى في الرُّبِيع. ورواية الخشني المِرْيَاعُ بالياء المنقوطة باثنتين من أسفل، وقال: هو مِفْعَالٌ من راع إلى كذا يَرِيعُ أي رَجَعَ<sup>(٢)</sup>».

وقوله: «وقول الشاعر في بيته: حَوْلُ الفصائل. أراد جمعَ فُضْلَانٍ، وفُضْلَانٍ جمع فُصَيْلٍ، وهو الصغير من الإبل. والصواب الوصائل، وهو جمع وَصَيْلَةٍ. وقد فَسَّرَهَا ابن إسحاق وابن هشام<sup>(٣)</sup>».

وقوله: الحَلِيُّ اسم موضع فيه ماء، وقال بعضهم: هو اسم نبات. وهذا غلط، لأن اسم النبات هو الحَلِيُّ بتشديد الياء وبكسر اللام<sup>(٤)</sup>.

وقد يذكر الخشني مختلف الروايات، ويوثق بعضها ويصوبها مثال ذلك قوله: «وَخِذَامَةٌ ابْنَةُ الحَارِثِ، هكذا روي بخاء معجمة مكسورة وذال معجمة، وروي أيضاً وَجْدَامَةٌ بجيم مضمومة وذال مهملة، وخُذَامَةٌ بحاء مهملة وذال معجمة وفاء... قيدها أبو عمر النَّمْرِيُّ وهو الصواب<sup>(٥)</sup>».

وقوله: الطُّيُّ، ويقال الطُّوَى، وكلُّ بمعنى واحد، فليس كذلك، لأن الطُّيَّ بمعنى الحجارة التي طُوي بها البئر، سميت بالمصدر والطُّوَى هي البئر نفسها<sup>(٦)</sup>.

(١) الخشني، ج ١ ص ١٠٣.

(٢) الخشني، ج ١ ص ١٠٦.

(٣) الخشني، ج ١ ص ١٠٦.

(٤) الخشني، ج ١ ص ١٢٢.

(٥) الخشني، ج ١ ص ١٣٢.

(٦) الخشني، ج ١ ص ١٣٠.

وقوله: «أُحْيِيهَا لَهُ بِالْفَقِيرِ، أَيْ بِالْحَفْرِ وَبِالْغَرَسِ، يُقَالُ: فَقَرْتُ الْأَرْضَ إِذَا حَفَرْتُهَا، وَمِنْهُ سُمِّيَتِ الْبِئْرُ فَقِيرًا. وَقَالَ الْوَقْشِيُّ: الصَّوَابُ هُنَا بِالْتَّفْقِيرِ، وَأَرَادَ الْوَقْشِيُّ هُنَا الْمَصْدَرَ وَهُوَ الْأَحْسَنُ»<sup>(١)</sup>.

وعني الخشني في منهجه في تفسير الغريب بالقراءات القرآنية ولغات العرب، مثال ذلك قوله:

«يُقَالُ: أَنَّى الشَّيْءُ أَنِّي وَأَنْ، ثَلَاثُ لُغَاتٍ بِمَعْنَى وَاحِدٍ فِي مَعْنَى حَانَ»<sup>(٢)</sup>.

وقوله: «هَلُمُّوا إِلَيَّ ثَوْبًا، هِيَ كَلِمَةٌ سُمِّيَ بِهَا الْفِعْلُ، وَفِيهَا لُغَتَانِ: فَلُغَةُ أَهْلِ الْحِجَازِ أَنْ لَا يُثَنُّوْهَا وَلَا يَجْمَعُوْهَا وَلَا يُؤَنَّثُوْهَا. وَلُغَةٌ غَيْرُهُمْ أَنْ يُثَنُّوْهَا وَيَجْمَعُوْهَا وَيُؤَنَّثُوْهَا. وَجَاءَ الْقُرْآنُ عَلَى لُغَةِ الْحِجَازِ. قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: «وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا»<sup>(٣)</sup>. وَمَعْنَاهَا أَقْبِلُوا إِلَيْنَا»<sup>(٤)</sup>.

وقوله: مَا وَدَّعَهُ وَمَا قَلَاهُ. وَفِي رِوَايَةِ الْخَشْنِيِّ وَدَّعَهُ بِالتَّخْفِيفِ، وَهِيَ لُغَةٌ شَاذَةٌ. وَقَدْ رَوَى فِي بَعْضِ الْقُرَاءَاتِ: مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ بِالتَّخْفِيفِ، وَمَا قَلَى أَيَّ مَا أَبْغَضَكَ. تَقُولُ: قَلَيْتُ الرَّجُلَ إِذَا أَبْغَضْتَهُ»<sup>(٥)</sup>.

وإلى جانب عنايته بلغات العرب، عُني بالبحث في أصول الالفاظ الدخيلة مثال ذلك قوله: «لَبَابٌ لَبَابٌ. قَدْ فَسَّرَهُ ابْنُ إِسْحَاقَ، وَيُقَالُ: لَبَابٌ كَلِمَةٌ فَارْسِيَّةٌ مَعْنَاهَا الْقَفْلُ الْقَفْلَ أَي الرَّجُوعَ الرَّجُوعَ»<sup>(٦)</sup>.

وقوله: اسْتَرْطَبَانِ، أَنْ مَعْنَاهَا أَخَذَتْهُ النَّارُ بِالفارسية<sup>(٧)</sup>.

(١) الخشني، ج ١ ص ١٥٢.

(٢) الخشني، ج ١ ص ١٠١.

(٣) سورة الاحزاب الآية: ١٨.

(٤) الخشني، ج ١ ص ١٤٧.

(٥) الخشني، ج ١ ص ١٦٠.

(٦) الخشني، ج ١ ص ٨٢.

(٧) الخشني، ج ١ ص ٨٢.

وقوله: «والمرازية» وزراء الفرس واحدهم مَرزُبَان<sup>(١)</sup>.

وقوله: «وَالْأَسْبَدُ» بالفارسية الْفَرَسُ<sup>(٢)</sup>.

وقوله: «السَّيْدُ» بلغة فارس شعاع الشمس<sup>(٣)</sup>.

ويحاول الخشني أن يتتبع الألفاظ الحميرية التي دخلت العربية في سيرة ابن هشام،  
مثال ذلك:

قوله: الْأَمْضُ الشُّكُّ بلغة حمير<sup>(٤)</sup>.

وقوله: وَالشَّنَاتِرُ الْأَصَابِعُ بلغة حمير، واحدها شِنْتِرٌ<sup>(٥)</sup>.

وقوله: «وَنَحْمَاسُ» بلغة حمير الرأس<sup>(٦)</sup>.

ونجده يعنى بتحديد الألفاظ التي أصبحت لها دلالات اصطلاحية، سواء أكانت  
الفاظاً دخيلة أم منقولة عن أصل عربي، مثال ذلك: قوله: الدَّهْمَانُ شيخ القرية، العارف  
بالفلاحة وما يَصْلُحُ بالأرض من الشجر، يُلْجأ إليه في معرفة ذلك<sup>(٧)</sup>.

وقوله: «قَطَنُ النَّارِ» هو خادمها الذي يخدمها، ويمنعها من أن تطفأ لتعظيمهم  
إياها<sup>(٨)</sup>.

وقوله: الْأُسْقُفُ فِي الْكَنِيسَةِ هو عالم النُّصَارَى الذي يقيم لهم أمر دينهم، ويقال:  
أُسْقُفٌ بِالْتَّخْفِيفِ أَيْضاً<sup>(٩)</sup>.

---

(١) الخشني، ج ١ ص ٩٧.

(٢) الخشني، ج ١ ص ١٢٢.

(٣) الخشني، ج ١ ص ١٩٢.

(٤) الخشني، ج ١ ص ٧٨.

(٥) الخشني، ج ١ ص ٨٢.

(٦) المصدر نفسه.

(٧) الخشني، ج ١ ص ١٥٢.

(٨) المصدر نفسه.

(٩) المصدر نفسه.

وقوله: أصل الناموس هو صاحب سر الرجل في خيره وشره، فعبر عن الملك الذي جاءه بالوحي به (لقد جاءه الناموس)<sup>(١)</sup>.

وقوله: «والسجع أن يكون الكلام المنثور له نهايات كنهايات الشعر.

وقوله: «الشُمَامِيسَة عُبَاد الروم»<sup>(٢)</sup>.

وقوله: «والأبناء القبائل المختلطة»<sup>(٣)</sup>.

وقوله: «والفَيْجُ الذي يسير للسلطان بالكتب على رجليه»<sup>(٤)</sup>.

ويبحث الخشني في كثير من الأحيان في أصول معاني الألفاظ التي يقوم بشرحها مثال ذلك:

قوله: «السائح الذاهب على وجه الأرض للعبادة، لا يستقر بمكان، أُخِذَ من الماء السائح وهو الذاهب على وجه الأرض»<sup>(٥)</sup>.

وقوله: «التُهَمَةُ الواسعة المتطامنة، ولذلك قيل لما انخفض من أرض الحجاز تَهَامَةٌ»<sup>(٦)</sup>.

وقوله: «والقُرُوم سادات الناس، وأصله الفحول من الإبل»<sup>(٧)</sup>.

وقوله: «والكَهَامُ الذي يقصر في أمره، مأخوذ من السيف الكهام، وهو الذي لا يقطع»<sup>(٨)</sup>.

---

(١) الخشني، ج ١ ص ١٥٩.

(٢) الخشني، ج ١ ص ١٨٥.

(٣) الخشني، ج ١ ص ١٨٦.

(٤) الخشني، ج ١ ص ١٠٠.

(٥) الخشني، ج ١ ص ٨٣.

(٦) الخشني، ج ١ ص ٧٧.

(٧) الخشني، ج ١ ص ١٢٨.

(٨) الخشني، ج ١ ص ١٢٧.

وقوله: «والهَيَّامَةُ الكَثِيرُ الهَيَّامِ، وأصل الهَيَّامُ دَاءٌ يصيب الإبل فتشدد حرارة أجوافها فلا تَرَوِي من الماء إذا شربت، ومنه قوله تعالى: فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهَيْمِ»<sup>(١)</sup>.

ويستقي الخشني شواهد التي يستدل بها على صحة المعلومة اللغوية التي يوردها من آيات القرآن الكريم ومن أشعار عصر الاحتجاج، ومن الأمثال، وأقوال «بعض البلغاء» على حد تعبيره. وقد يكتفي بإيراد شطر البيت الذي تضمن وجه الشاهد.... وغالباً ما يحرص على نسبة الشاهد إلى قائله.

وكان الخشني في غالب الأحيان يذكر مصادره، لا سيما عندما تكون هنالك روايات مختلفة، فنراه يذكر إلى جانب ابن إسحاق وابن هشام، كراع النمل وابن حبيب وصاحب كتاب «العين»، وأبا عبيد البكري وأبا علي الغساني والدارقطني وأبا عبيدة مَعْمَر بن المثنى والسائب الكندي وعبد الغني الحافظ المصري والوقشي... وفي كثير من الأحيان يَسْنِدُ إلى مجهولين فيقول: «قالوا»<sup>(٢)</sup>... وقال بعض اللغويين... وقال بعضهم... دون أن يعين القائل...

ومما تجدر ملاحظته أن الخشني لم يذكر من بين أصحاب المعجمات الذين سبقوه سوى صاحب كتاب العين... واكتفى بالإشارة إليهم بعبارات مبهمة مثل: قالوا، وقال بعض اللغويين، وقال بعضهم... إلخ.... وربما كانت هذه الظاهرة تستحق أن تدرس...

لقد اهتم الخشني بشرح غريب أبيات الشعر الواردة في سيرة ابن هشام، وأفرد لها عناوين خاصة، ولكنه في الواقع لم يقتصر على غريب الشعر، ولكنه تجاوز ذلك إلى شرح غريب ما ورد في حوادث السيرة. وربما كان من الضروري أن نتوقف عند مفهوم كلمة «غريب» عند الخشني. وإن الدارس لكتابه (شرح غريب السيرة)، يخرج بأن لكلمة «غريب» مفهوماً خاصاً عنده، ونرى أنه يعني بالغريب جميع الألفاظ التي يصعب فهمها على الشادين والتلامذة المبتدئين... فمن الطبيعي أن يضم مجلسه للإقراء والتدريس تلاميذ من أجناس مختلفة من العرب والأعاجم التي يتكون منها المجتمع

---

(١) سورة الواقعة، الآية: ٥٥.

وفي النص انظر: الخشني ج ١ ص ١٥٠.

(٢) انظر: الخشني، ج ١ ص ٨٠.

الإسلامي... ولذا نراه يشرح أحياناً ألفاظاً عادية بمعناها العام، كان يشرح لفظة «أجل» بمعنى «نعم»... إلخ.

ويسلك أبو زر في منهجه هذا منهجاً تعليمياً، وربما أعاد شرح اللفظة بعينها، غير مرة، فهو يملي كتابه هذا على تلاميذه من «حفظه بلفظه»، قاصداً شرح ما استبهم من غريبه ومعانيه.

ويقودنا هذا البحث إلى القول إن هذا السفر الجليل الذي وضعه أبو زر الخشني لطلابه يعتبر إضافة جديدة في علم وضع المعجمات، وكذلك فيما يتعلق بالبحث في المترادف والمشتك من الألفاظ وقد جعل من فهم المعاني من «سياق الكلام»، محوراً للمنهج الذي تناول به تفسير غريب السيرة. ولا شك أن هذا المنهج اللغوي يجد جذوره التاريخية في المصنفات التي سبقته وفيما أسماه الجاحظ قبل ذلك بعدة قرون «لكل مقام مقال»<sup>(١)</sup>.

---

(١) انظر: الحيوان، ج ٢ ص ٤٣، البيان والتبيين، ج ١ ص ١٤٥.

## المصادر والمراجع

- (١) إبراهيم بن مراد، دراسات في المعجم العربي، بيروت، سنة ١٩٨٧ م.
- (٢) ابن الأبار - أبو عبدالله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي البلنسي، التكملة لكتاب الصلة، السفر الأول مجريط، سنة ١٨٨٦ م.
- (٣) ابن رشد - محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن رشد القرطبي (المتوفى سنة ٥٩٥ هـ)، بداية المجتهد ونهاية المقتصد، ج ١-٢، ٢-١٤٠٢ هـ-١٩٨٢ م.
- (٤) الجاحظ - أبو عثمان عمرو بن بحر، الحيوان، ج ١-٧، تحقيق عبد السلام هارون، بيروت، ١٤٠٨ هـ-١٩٨٨ م.
- (٥) الجاحظ. أبو عثمان عمرو بن بحر، البيان والتبيين، ج ١-٤، تحقيق عبد السلام هارون، القاهرة ١٣٨٠ هـ-١٩٦٠ م.
- (٦) الخشني - أبو ذر مصعب بن أبي بكر محمد بن مسعود الخشني، (المتوفى سنة ٦٠٤ هـ)، الإملاء المختصر في شرح غريب السير، ج ١-٣، تحقيق ودراسة د. عبد الكريم خليفة، عمان، ١٩٩٠ م.
- (٧) الذهبي شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ١-٢٥، بيروت، ١٤٠٤ هـ-١٩٨٤ م.
- (٨) الراغب الأصفهاني - أبو القاسم الحسين بن محمد بن الفضل، (كان في أوائل المائة الخامسة)، المفردات في غريب القرآن، مصر.
- (٩) الزركشي - بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج ١-٤، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، بيروت، سنة ١٩٧٢ م.
- (١٠) السيوطي - جلال الدين عبد الرحمن السيوطي الشافعي (المتوفى سنة ٩١١ هـ)، الإتيان في علوم القرآن، ج ١-٢.
- (١١) السيوطي - جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، ج ١-٢، تحقيق أبو الفضل إبراهيم، مصر ١٣٩٩ هـ-١٩٧٩ م.
- (١٢) الشاطبي - أبو إسحاق إبراهيم بن موسى اللخمي الغرناطي المالكي (المتوفى ٩٧٠ هـ)، الموافقات في أصول الشريعة، ج ١-٤ مصر.
- (١٣) الطبرسي - أبو علي الفضل بن الحسين، (المتوفى سنة ٥٤٨ هـ)، مجمع البيان في تفسير القرآن، ج ١-١٠، صيدا، سنة ١٣٢٣ هـ.
- (١٤) محمد المبارك، فقه اللغة وخصائص العربية، بيروت، سنة ١٩٦٨ م.